جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
السنة الثالثة

مقرر تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر
(المحاضرة الثالثة)
أ.د. أحمد الخضر– د. محمد الحجي

الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية (١)
المرحلة التجارية

أولاً – تعريف الاستعمار:

الاستِعْمارُ إخضاع جماعة من الناس لحكم أجنبيّ، ويُسمَّى سكان البلاد المستَعْمَرين، وتُسمَّى الأراضي الواقعة تحت الاحتلال البلاد المُستعمَرة .ومعظم المستعمَرات مفصولةٌ عن الدولة المستعمِرة (بكسر الميم الثانية) ببحارٍ ومحيطات. وغالبًا ما ترسل الدولة الأجنبية سكانًا للعيش في المستعمرات وحكمها واستغلالها مصادر الثروة. وهذا ما يجعل حكّام المستعمرات منفصلين عِرقيًا عن المحكومين.

كما يعَّرف الاستعمار بأنه "***العمل أو مجموعة الأعمال التي من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بوساطة دولة ما أو جماعة منظمة من الناس على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم، أو على سكان تلك الأرض أو على الأرض والسكان في آن واحد***".

وللاستعمار تاريخٌ طويلٌ يعود إلى العصور القديمة. فالرومان، مثلاً، حكموا عددًا من المستعمرات في أوروبا والشرق الأوسط وإفريقيا. وبدءًا من القرن الخامس عشر الميلادي، بدأت الدول الأوروبية في بناء إمبراطوريات استعماريةٍ ضخمة في كلٍّ من إفريقيا وآسيا وأمريكا الشمالية، وكذلك في أمريكا الجنوبية. ومن أهم القوى الاستعمارية الأوروبية، فرنسا، بريطانيا، هولندا، البرتغال، إسبانيا. وبحلول سبعينيات القرن العشرين، تَفكَّكت معظم هذه الإمبراطوريات.

وتُعزى أهمية المستعمَرات للعوائد الاقتصادية التي تُدِرُّها. فالدول تحصل على سلعٍ نادرةٍ مثل الماس والتوابل من هذه المستعمرات. كما تسعى الدول إلى توسيع صناعاتها وتجارتها مع المُستعمرات لأنَّ هذه المُستعمرات قد تكون: ١– مصدرًا للمواد الخام ٢– سوقًا للسلع ٣– مصدراً لسلع قابلة للتصدير لبلدان أخرى ٤– مناطق استثمارية. وبالإضافة إلى ذلك، فإنَّ الدول تستخدم المستعمرات أيضًا لزيادة مكانتها وسمعتها بين الأمم، كما تستفيد من مواقعها الحيوية لأغراضٍ عسكرية، أو تستفيد منها لنشر دينها ومذهبها .

ويعتقد بعض الناس أن الاستعمار لم يَمُت، فهم يُعرِّفون الاستعمار بأنه أيُّ شكلٍ من أشكال الظلم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي من قبل جماعة من الناس لجماعة أخرى، وذلك على أساسٍ عرقي. ويستخدم آخرون مصطلح الاستعمار الجديد لتعريف السيطرة غير المباشرة للدول الغنية على الدول النامية. وبحسب تفسير هذه المدرسة، فإن الدول النامية تعتمد على الدول الغنية في مجال استثمار رأس المال، مع أن هذا الاعتماد يدفع الدول الغنية إلى الاستفادة من الدول النامية.

ثانياً- مراحل الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية:

كما ذكرنا سابقا فقد مر الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية بمرحلتين رئيسيتين:

١- مرحلة استعمار سواحل القارة والجزر القريبة منها.

٢- مرحلة احتلال القارة وتقسيمها بين الدول الأوربية.

١- مرحلة استعمار سواحل القارة والجزر القريبة منها (١٤١٥-١٨٨٠)

شارك في هذه المرحلة عدد كبير من الدول الأوروبية ومن أهمها البرتغال وإسبانيا وهولندا وبريطانيا.

أ- الدول التي شاركت في هذه المرحلة:

(١)- الاستعمار البرتغالي:

أ – العوامل التي ساعدت البرتغاليين على كشف القارة

كان للبرتغال قصب السبق في مجال كشف القارة، حيث سعى البرتغاليون للوصول إلى الهند، عن طريق بحري جديد لا يمر بالأراضي العربية الإسلامية، وأثناء سعيهم هذا سيطروا على مناطق ومراكز على امتداد السواحل الإفريقية الغربية والشرقية، لتأمين طرق التجارة إلى الهند، وقد ساعدهم مجموعة من العوامل:

١- العامل الاقتصادي

كانت أوروبا تسد حاجاتها من التوابل الشرقية عن طريق المدن التجارية الإيطالية، وكانت التوابل تنقل بواسطة التجار العرب، حيث كانت التوابل تنتقل من السواحل الهندية عبر طريقي الخليج العربي والبحر الأحمر، ثم تنتقل بالقوافل إلى سواحل المتوسط في بلاد الشام ومصر. وقد أدت هذه التجارة إلى ازدهار الحياة الاقتصادية في المناطق العربية التي تمر بها نتيجة الرسوم الجمركية وعمليات التفريغ والشحن وأجور حماية القوافل.

أثر ذلك على أوروبا، التي أصبحت تشتري التوابل بأسعار عالية، لذلك قرروا البحث عن طريق بحري رخيص ومباشر، ومن أجل ذلك كان على البرتغاليين الدوران حول القارة الإفريقية ومعرفة سواحلها الشرقية لتأمين سفنها التجارية.

٢ – العامل الديني:

أراد البرتغاليون الحصول على تأييد البابوية لجهودهم الاستعمارية، وحشد الرأي العام لمساندة رحلات الغزو الاستعماري، والتطوع للمشاركة فيها، فرفعوا شعار" **هزيمة الإسلام هزيمة نهائية**"، والسعي لنشر المسيحية في المناطق التي يصل إليها البرتغاليون، والوصول إلى مملكة القديس بريسترجون أو القديس يوحنا الراعي[١].

٣– العامل السياسي:

بعد أن استكملت البرتغال استقلالها السياسي في القرن الثالث عشر، واستقرت أحوالها السياسية، عمل حكامها على تشجيع الرحالة ومدهم بكل متطلبات الرحلات البحرية المادية والبشرية، كما شجعوا على التوجه نحو سواحل القارة الإفريقية الشمالية والغربية لاتخاذها نقاط ارتكاز في سبيل الوصول إلى الهند، مستفيدين من قرب البرتغال من السواحل الإفريقية المطلة على الأطلسي.

٤– زيادة المعلومات الجغرافية والعلمية:

فقد انتشرت المعارف العلمية والجغرافية والفلكية والملاحية، ولاسيما بعد احتكار البرتغاليين بالعرب المسلمين الذين حكموا الأندلس، فقد أنشأ البرتغاليون مدرسة لتخريج الملاحين المهرة، اعتمادا على العلوم الجغرافية العربية، كما استفادوا من التقنيات العربية في مجال الملاحة ومنها استخدام البوصلة البحرية، وتقدم صناعة السفن.

ب– سير الأعمال الاستعمارية البرتغالية

يرتبط النشاط البحري البرتغالي بالأمير هنري الملاح (١٣٩٤–١٤٦٠) ابن الملك البرتغالي يوحنا الأول، حيث بدأ نشاطه الاستعماري ضد بلدان المغرب العربي، مدفوعاً بعوامل دينية تهدف إلى هزيمة الإسلام، وقد نجح عام ١٤١٥ باحتلال سبته واتخذها نقطة انطلاق نحو غزو إفريقية. واستمر في السير مع سواحل إفريقيا الغربية فوصل إلى جزيرتي ماديرا وآصور، واكتشف نهر السنغال ووصل حتى الرأس الأخضر عام ١٤٤٥، ولكنه توفي عام ١٤٦٠ قبل استكمال باقي غزواته.

---

[١]– **أسطورة الأسقف جان أو يوحنا الراعي:**

كان أساس هذه الأسطورة رسالة أرسلها هذا الأسقف إلى الإمبراطور مانويل كومين عام ١١٦٥، ليصف له مملكته الرائعة " فهو يحكم سبعين ملكاً، ويلبس جلد زاحفة تعيش في النار، وعندما يحارب يسبقه ثلاثة عشر صليباً من الذهب، ولا يطلب إلا أن يتقدم نحو القدس لإبادة الكفار".

ومنذ ذلك الوقت والأوربيون يبحثون في كل مكان عن هذا العاهل المسيحي العظيم ، وبما أنهم لم يجدوه في آسيا، اعتمدوا على شائعات حملها مسافرون قادمون من فلسطين تتحدث عن ملك مسيحي يملك بلاداً تقع ما وراء مصر، فاستنتجوا من ذلك أنه القس جان المطلوب.

واستمر النشاط البرتغالي بعد وفاة هنري الملاح، حيث وصلت السفن البرتغالية إلى خليج غانا، وأنشئوا قلعة المينا، ووصلوا إلى رأس كاثرين عام ١٤٧٥. وفي عام ١٤٨٧ وصل الرحالة بارتليمو دياز إلى خليج موسل، وفي العام ١٤٨٨ وصل إلى نهر غريت فيش.

تبع ذلك رحلة فاسكو دي غاما، والتي بدأت عام ١٤٩٧ من نهر كاجوس فوصل إلى موزمبيق ومالندي، وفي طريقه اكتشف مدناً عامرة بالسكان ومزدهرة اقتصادياً، وشاهد السفن العربية وأدهشته صناعتها وحجمها، ثم التقى بالرحالة ابن ماجد[٢]، واستطاع إقناعه بقيادة السفن البرتغالية عبر المحيط إلى الهند ووصلوها عام ١٤٩٨.

واستمرت الرحلات البرتغالية حتى عام ١٥٠٩، حيث استولوا على المدن والإمارات الإسلامية في شرق إفريقية وهي سفالة ، وكلوه، ومباسة، وجزيرة ماليندي شمالاً إلى سفالة جنوباً، واتصلوا بملك الحبشة (إثيوبية).

ج- نتائج الغزو الاستعماري البرتغالي لإفريقيا

١- أسس المستعمرون البرتغال على طول الساحلين الغربي والشرقي مراكز تجارية ومحطات بحرية استخدموها كحصون وكمراكز إمدادات ومراكز تبشير وقلاع لتجميع الرقيق.

٢- حقق البرتغاليون أرباحاً تجارية هامة ومجداً عظيماً للبرتغال، حيث أصبح ملوكهم يطلقون على أنفسهم لقب "***سادة الفتح والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وجزيرة العرب***".

٣- انتقلت التجارة من وسط البحر المتوسط والمدن الإيطالية إلى سواحل المحيط الأطلسي ، مما أثر سلباً على الاقتصاد العربي، وسرّع في سقوط دولة المماليك.

٤- اقتصر تواجدهم في هذه المرحلة على احتلال بعض الجزر القريبة من الساحل وإقامة الحصون والقلاع والمحطات العسكرية على سواحل القارة

---

[٢]- أحمد بن ماجد بن محمد السعدي: من أهل نجد، وُلد بجلفار بعُمان على ساحل الخليج العربي، يحتمل أن يكون قد وُلد في النصف الأول من القرن التاسع الهجري، ولأسرته مكانة في قيادة السفن وركوب البحر. اشتهر ابن ماجد بأنه من علماء فن الملاحة وتاريخه عند العرب، ويزيد عدد مخطوطاته التي عثر عليها في الوقت الحاضر على الأربعين، معظمهما أراجيز وأشعار يتراوح طول الواحدة منها بين ٢٠ و٣٠٠ بيت. وكان ابن ماجد واسع الاطلاع أطلق على نفسه مجموعة من الألقاب منها: ناظم القبلتين مكة وبيت المقدس، وأسد البحر الزخار، والمعلم العربي، وخلف الليوث. ومن أهم كتبه، كتابا :الفوائد في أصول علم البحر والقواعد؛ حاوية الاختصار .وقد قسم كتاب الفوائد إلى اثني عشر قسمًا، أطلق على كل قسم منها فائدة، وتناولت هذه الفوائد نشأة الملاحة والإبرة الممغنطة، وشؤون البحرية، ومنازل القمر، ووردة الرياح، والطرق البحرية، والأرصاد الفلكية والبحر الأحمر وجزره.

٥- سعى البرتغاليون إلى تدمير المراكز التجارية والحضارية الإسلامية في الساحل الشرقي، فعندما هاجموا مدينة كلوة قتلوا وسلبوا ونهبوا المدينة ثم أحرقوها، كما حولوا ممباسة وماليندي إلى مراكز للتواجد البرتغالي الرئيسية، بعد أن بنوا فيها قلعة يسوع عام ١٥٩٣، كما أسسوا في موزمبيق ثاني أكبر مستعمرة لهم بعد أنغولا.

٦- لم تستطع البرتغال الحفاظ على تفوقها البحري، فمع بداية القرن السابع عشر اشتدت المنافسة بين الدول الأوروبية (هولندا- فرنسا- انكلترا).

٧- زاد من ضعف البرتغاليين توحيد العرشين الإسباني والبرتغالي في عهد الملك الإسباني فيليب (١٥٨٠-١٦٤٠)، وسياسة البرتغال التي اتسمت بالاستغلال والاحتكار والمعاملة السيئة مما أثار موجة من الكراهية الشديدة ضدهم، مما دفع الأهالي للثورة ضدهم.

٨- تدخل اليعاربة العمانيين حيث حاصروهم في قلعة يسوع في ممباسا عام ١٦٩٨ وطردوهم منها نهائياً، ثم طردوهم من ماليندي والصومال، ولم يتبق للبرتغاليين وجود سوى في موزمبيق على الساحل الشرقي وفي أنغولا-بيساو في الساحل الغربي.

٩- ركز البرتغاليون جهودهم على الاستغلال الاقتصادي والاستحواذ على ثروات القارة، فاتجهوا نحو تجارة الرقيق مع العالم الجديد، وخاصة مع البرازيل، والمستعمرات الإسبانية في أمريكا اللاتينية، وطبقوا سياسة السخرة.

١٠- لم تقم السلطات البرتغالية بجهود تذكر في ميادين الحياة العامة كالصحة والتعليم واقتصرت خدماتها على تأمين حاجيات البرتغاليين في المستعمرات.

(٢) الاستعمار الإسباني:

تأخر الإسبان في حركة الاستعمار الأوروبي، لأسباب تتعلق بالأوضاع الداخلية، فقد كانت إسبانية مقسمة إلى ممالك صغيرة، ولم تتحد إلا بزواج فرديناند وإيزابيلا ملكي أرغون وقشتالة، إضافة لانشغالها في حروبها مع العرب، والتي انتهت أخيراً بسقوط غرناطة آخر المعاقل العربية في الأندلس عام ١٤٩٢.

توجهت جهود إسبانية في البداية إلى العالم الجديد، أما في القارة الإفريقية فقد كان نشاطها محدوداً جداً واقتصر على السواحل الشمالية والشمالية الغربية، ففي عام ١٤٧٦، استولت على جزر الكناري لاستعمالها كمحطات تجارية لسفنها التجارية. وفي أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر، نجح الإسبان في احتلال بعض الموانئ والمدن الرئيسية على الساحل الشمالي لإفريقيا(مليلة ووهران وصفاقس)، إلا أن محاولاتهم المتكررة لاحتلال الجزائر وتونس باءت بالفشل (١٥٤١ حملة شارلكان).

وقبيل القرن الثامن عشر كانت إسبانيا قد تخلت عن معظم الأقاليم التي استعمرتها في شمالي القارة، ولم يبق لها إلا حصني سبته ومليله في المغرب الأقصى، وكانت الأخيرة قد آلت للبرتغال منذ عام ١٦٤٠. وفي القرن الثامن عشر، استولت إسبانيا على جزيرتي فرناندوبو وانوبون بالقرب من الساحل الإفريقي الغربي، وسيطرت على غينية عام ١٨٤٣. وفي عام ١٨٤٤ أصبحت المنطقة الواقعة بين الرأس الأبيض ورأس بوغادور محمية إسبانية، أما في الشمال فقد سيطرت على أفني في المغرب الأقصى عام ١٨٥٩.

(٣)- الاستعمار الهولندي:

كانت هولندا تابعة للتاج الإسباني، وكانت تشتري احتياجاتها من السلع الشرقية من الأسواق البرتغالية الخاضعة لإسبانيا منذ عام ١٥٨٠. وفي عام ١٥٩٤ أعلن الهولنديون الاستقلال، فقامت إسبانيا بإغلاق الأسواق البرتغالية بوجههم مما دفعهم إلى الاتجاه نحو الشرق عبر رأس الرجاء الصالح، فأُسست ***شركة فانفير***، والتي أرسلت أولى رحلاتها عام ١٥٩٥، فوصلت الرحلة إلى سواحل الهند الشرقية، وحصلت على أرباح هائلة مما شجع على إنشاء عدة شركات أخرى. وقد خشيت الحكومة الهولندية من المنافسة بين هذه الشركات فسعت إلى توحيدها في شركة واحدة هي ***شركة الهند الشرقية الهولندية للتجارة*** عام ١٦٠٢، ومنحتها السلطة وحرية العمل فيما يتعلق بالملاحة والتجارة في المحيط الهندي، حيث أقاموا عدة حصون على سواحل إفريقية الغربية وخاصة ساحل الذهب. ثم امتد نشاطهم إلى الكونغو، وفي عام ١٦٤٨ احتلوا مدينة الكاب، وكانت هذه البداية للاستعمار الهولندي لجنوب إفريقيا والذي استمر قرابة ١٥٠ عام.

قام الهولنديون بتقوية حصونهم في الكاب لمواجهة المقاومة الإفريقية، وتهديد القوى الاستعمارية الأوربية الأخرى المستمر، وبخاصة بريطانية التي انتزعت منها جزيرة سانت هيلانة عام ١٦٥٥، وفرنسا التي احتلت جزءاً من مدغشقر، وانتزعت جزيرة موريشيوس في شرقي إفريقية.

وبعد الغزو الفرنسي لهولندا عام ١٧٩٤، هرب ملكها وليم أورانج إلى إنكلترا، وشكل حكومة هولندية في المنفى، فقام الأسطول البريطاني باحتلال الكاب. وبموجب معاهدة أميان ١٨٠٢ بين فرنسا وانجلترا، عادت الكاب إلى هولندا، ثم عادت إنكلترا واستولت عليها عام ١٨٠٦، وعلى إثر الحروب النابليونية، أقر مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ضمَّ مستعمرة الكاب إلى بريطانية.

وجدير بالذكر أن مناطق الاستعمار الهولندي في جنوب القارة كانت خاضعة لشركة الهند الشرقية الهولندية، وكان مجلس إدارة الشركة يتمتع بكافة السلطات على المستعمرات، فهو الذي يصدر التعليمات والقوانين التجارية والعلاقات بين السكان والشؤون الدينية والعلاقات الاجتماعية.

وكانت الشركة تعهد بإدارة منطقة الكاب إلى ضابط يقوم بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه من مجلس إدارة الشركة، ويساعده مجلس استشاري. وقد نجحت الشركة في تشجيع جماعات من الهولنديين للهجرة إلى منطقة الكاب، حيث استقروا في المناطق الصالحة للزراعة في الشمال

والشرق وزرعوا مختلف الزراعات التي كانت معروفة كالكرمة والحبوب والزيتون، وأُطلق عليهم اسم البوير.

(٤)- الاستعمار البريطاني

تزامن نشاط انكلترا على سواحل إفريقية الغربية مع نشاطها في العالم الجديد، ويعود ذلك لحاجتها إلى اليد العاملة في العالم الجديد، مما دفعها إلى تأسيس المراكز التجارية على سواحل إفريقيا الغربية بين غينيا وسيراليون، ومن أوائل البحارة الإنجليز ***جون هوكنز***، والذي قام بعدة رحلات لغرب إفريقية مابين ١٥٦٢-١٥٦٧ لجلب الرقيق للعمل في جزر الهند الغربية، ثم اتسعت تجارة الرقيق البريطاني بحيث أصبحت بريطانيا من أهم الدول في هذا المجال.

وفي نهاية القرن الثامن عشر، خسرت بريطانيا مستعمراتها في أمريكا الشمالية، بسبب حروب الاستقلال الأمريكية والتي انتهت بقيام الولايات المتحدة الأمريكية. فتوجهت بريطانيا لاستعمار القارة الإفريقية، يشجعها على ذلك ازدهار صناعتها وحاجاتها لأسواق لتصريف منتجاتهم والحصول على المواد الخام. وكانت **غامبيا** من المناطق المهمة التي توجهت إليها الجهود البريطانية، حيث أقام البريطانيون حصناً قرب نهر غامبيا، وشكل هذا الحصن النواة لمدينة باتهرست، وأصبحت غامبيا تابعة للعرش البريطاني، وأصبحت مستعمراتها تشمل، إضافة إلى غامبيا، ***سيراليون وساحل الذهب وجزيرة هيلانة***.

والملاحظ أن بريطانيا استخدمت الدبلوماسية السلمية والحرب معاً، فقد أبرمت عدداً من معاهدات الحماية مع الدول الإفريقية، واستخدمت القوة لإخضاع المناطق التي رفضت الخضوع كما هو الحال في ساحل الذهب ونيجيرية الشمالية.

وفي القرن التاسع عشر، استعمرت بريطانية المينا وأكرا عام ١٨٧٤ ولاغوس وضواحيها عام ١٨٦١ واحتلت الكاب ١٨٠٦ وناتل ١٨٤٣، أما في إفريقيا الشرقية فاستولت على ممباسة ١٨٢٤ وبربرة عاصمة الصومال ١٨٨٤، وكان للبريطانيين نفوذ في زنجبار وغوندار.

وطيلة هذه الفترة لم يكن لدى بريطانية، كما الدول الأوربية الاستعمارية الأخرى، رغبة بالتوغل داخل القارة، ولاسيما أن التجار الأفارقة تولوا مهمة جلب السلع الإفريقية التقليدية والرقيق إلى المراكز والحصون الساحلية، حيث تتم عملية التبادل مع السلع الأوربية كالحلي والأساور والأقمشة والأسلحة النارية والذخيرة والكحول.

(٥)-الاستعمار الفرنسي

تعد فرنسا من أهم الدول الاستعمارية في القارة الإفريقية، دفعها إلى ذلك، بالإضافة إلى العوامل المشتركة مع الدول الاستعمارية الأخرى، تعصبها ضد الإسلام، حيث أخذت منذ وطأت أقدامها الأرض الإفريقية في بذل قصارى جهدها لمحاربة الإسلام واللغة العربية ونشر المسيحية، معتمدة على رجال الدين والمبشرين والمدارس التبشيرية، إضافة إلى أن حاجة فرنسا إلى الرقيق

والأيدي العاملة لسد النقص في مواردها البشرية كان أحد العوامل الأساسية في التوجه الاستعماري، حيث أصبح الرقيق الأسود عام ١٥٥١ يشكلون ١٠% من سكان فرنسا، كما لعبت فرنسا دوراً مهماً في تجارة الرقيق مع العالم الجديد.

وحتى أواخر القرن الثامن عشر، اقتصر نشاط الفرنسيين على السنغال في ساحل إفريقيا الغربية، حيث احتلوا سان لوي عام ١٦٧٧ واستولوا على جزيرة غوريه القريبة من داكار وجعلوا فيها محطات تجارية للرقيق.

وبعد الحروب النابليونية وفشلها في تحقيق بناء إمبراطورية أوروبية، اتجهت أنظار الملكية الفرنسية، بعد عودتها، للتوسع في إفريقيا، لإنقاذ هيبة فرنسا الدولية، فبدأت منذ عام ١٨١٧ بالتوسع في السنغال وساحل العاج عام ١٨٥٣.

وشملت مستعمراتها مع نهاية القرن التاسع عشر، ليبروفيل في الغابون وفرانس فيل، كما فرض الفرنسيون حمايتهم على الضفة اليسرى لنهر النيجر من منبعه حتى تمبكتو. أما في شمال إفريقيا، فقد احتل الفرنسيون الجزائر عام ١٨٣٠.

II- *نشاط الدول الأوربية الاستعمارية في مرحلة استعمار سواحل القارة والجزر القريبة منها:*

(١)- تجارة الرقيق

مقدمة:

الرق هو كون الإنسان مستعبدًا لغيره مملوكًا له، فاقد التصرف بذاته ومكاسبه. أما الاسترقاق فهو: الإدخال في الرق. نشأ الرِّق في أوقات مبكرة من التاريخ، وتعود نشأته في الغالب إلى الحروب والصراعات التي كانت منتشرة بين الأمم والشعوب من بدايات الخليقة.

وفضلاً عن الرِّق بسبب الحروب، فقد كان من الأساليب المعهودة والمنتشرة في أحداث الرق :سرقة الأطفال، أو خطف النساء والرجال في حوادث قطع الطرق، والغارات المحلية المتبادلة التي كانت تشنها القبائل البدائية بعضها على بعض، وكذا استعباد الأشخاص المذنبين كاسترقاق السارق .

كانت أحوال الرق عند الأمم القديمة في أسوأ صورة وأفظعها، فقد اتصفت معاملة السيد لرقيقه بالقسوة والجبروت ومجافاة الإحساس الإنساني والمشاعر الآدمية، حيث كان يتعامل معهم كما يتعامل مع الأثاث والأدوات والآلات الجامدة. ولم يكن للرقيق وقتئذ أدنى حق إنساني، بل كان لمالكه تمام الحرية في إبقائه على قيد الحياة، أو تجويعه وتعذيبه والتنكيل به. وقد منعت أكثر القوانين الزواج بالرقيق، وكثيرًا ما عاقبت الطرفين المتزوجين بالحرق في النار معًا وهم أحياء.

تجارة الرقيق في العصور الحديثة:

منذ منتصف القرن الخامس عشر تحول البرتغاليون إلى تجارة العبيد، نظراً للأرباح الطائلة التي أخذت هذه التجارة تدرها عليهم، وقد اقتصرت هذه التجارة خلال المراحل الأولى من العصر الحديث على أوروبا، حيث تم تصدير العبيد إلى المدن البرتغالية للعمل في مزارع السكر،

ولكن عندما تمكن الأوربيون من احتلال القارة الأمريكية حيث قاموا باستئصال حضارات القارة الأمريكية القديمة (الأنكا والأزتك) بشكل وحشي واستعبدوا السكان للعمل في الزراعة، ولكن نتيجة القضاء على معظم السكان الأصلين، إضافة إلى عدم قدرة المتبقين منهم على العمل في المزارع الكبيرة بسبب صعوبة العمل، قرر المستعمرون الجدد البحث عن مصادر أخرى لليد العاملة، للعمل في الزراعة وفي مناجم الفضة والذهب، فتوجهت أنظارهم نحو القارة الإفريقية . واحتكر البرتغاليون في البداية هذه التجارة، ثم دخلت الدول الأوربية الأخرى في هذه العملية، حيث وصل عدد مراكز تجارة الرقيق في عام ١٧٩١ إلى أربعين مركزاً منها ١٤ مركز بريطاني، و١٥ هولندي.

واعتمد الأوربيون في تجارتهم على ثلاثة مصادر :

١- اعتمد النخاسون الأوربيون على عقد اتفاقات مع الوسطاء الأفارقة وزعماء القبائل الساحلية.

٢- وأحياناً كانت التجارة تجري مباشرة بين قباطنة السفن بصفة فردية والقبائل المتفرقة المقيمة على طول ساحل ليبيرية الحالية.

٣- أو أن يأتي التجار ويقومون بشراء الرقيق من الممالك الإفريقية التي تقوم إلى الشرق من ساحل الذهب مثل ويده وداهومي.

هذا وقد حققت الدول الاستعمارية أرباحاً خيالية من هذه التجارة، حيث أدى دخول العبيد إلى البلاد الأم أو إلى المستعمرات إلى ازدهار الزراعة ودوران عجلة الصناعة، بسبب توفر اليد العاملة الرخيصة، مما أدى إلى التقدم العلمي والتقني الأوروبي، وتحقيق الثورة الصناعية الأوروبية.

رحلة الرقيق من إفريقيا إلى القارة الأمريكية:

اتبعت وسائل لا إنسانية في جمع الرقيق ونقلهم، وكان النخاسون يبحثون بوجه خاص عن اليافعين الجيدين الأصحاء من الزنوج(١٥-٢٥ سنة) لاستخدامهم في الزراعة والعمل بالمناجم، وكان هؤلاء التجار يلجؤون إلى إحراق قرى بأكملها وعندما يخرج أهلها فزعين يحيطون بهم بسلاحهم ويأسرون أكبر عدد منهم، ويسوقونهم على شكل جماعات سيراً على الأقدام لمسافات طويلة. وكثيراً ما تربط بأعناقهم عصي طويلة متصلة ببعضها لمنعهم من الهرب. وتوضع على أكتافهم أحمال وبضائع من العاج أو أي شيء يريد المستعمرون نقله إلى مراكز التصدير.

وكانت الرحلة الشاقة من الداخل إلى موانئ التصدير تؤدي إلى موت الكثير منهم، فالرقيق الذي يصبح عديم الفائدة يقتل في الطريق، أو يربط إلى جذع شجرة حتى يموت من الجوع أو تأكله الوحوش، وكانت الأم التي تحمل طفلها تجبر على تركه إذا لم تعد قادرة على حمل البضائع.

وعند وصول الرقيق إلى موانئ التصدير تبدأ معاناة من نوع آخر، فتجار الرقيق ومجهزي السفن الجشعين، يضعون كل ثلاثة عبيد في المكان المخصص لشخص واحد، حيث يتم حشرهم في أماكن ضيقة وهم مقيدين بالأغلال خوفاً من حالات التمرد والهرب، وتفتقر هذه السفن إلى أية

شروط صحية فتصبح على درجة كبيرة من القذارة، ومما يسبب هلاك عدد كبير من الأرقاء إثناء هذه الرحلة.

(٢)- إلغاء تجارة الرقيق

تعدّ بريطانية رائدة الدول الأوربية في إلغاء تجارة الرقيق، ومن أهم الأسباب التي دفعت إنكلترا إلى إلغاء الرق:

١- يقظة التيارات الدينية في إنكلترا، حيث نشأت الحركات الإنسانية المضادة لتجارة البشر، وبخاصة ***جماعة أنصار الإنسانية***، حيث عمل زعماء هذه الجماعة (مثل **كلاركسون ويلبرفورس**)، على إثارة الرأي العام ضد تجارة الرقيق.

٢- التطور الصناعي الذي شهدته إنكلترا، والثورة الصناعية فيها، أدى إلى تحول الأفارقة بالنسبة إليها من حرفيين منتجيين إلى مستهلكين لمنتجاتها الصناعية، ولاسيما بعد أن فقدت إنكلترا أسواقها في مستعمراتها في أمريكا الشمالية

٣- أدت الزيادة في أعداد العبيد في إنكلترا ومستعمراتها، إلى تحول هذه الطاقة البشرية من وسائل مربحة إلى عائق بوجه تطور الزراعة والصناعة، ولاسيما بعد أن شهدت فائضاً من العبيد، مما دفعها إلى العمل على أقرار القوانين والمراسيم لإلغاء هذه التجارة.

وفي عام ١٧٧٢ حرّمت بريطانيا تجارة العبيد على أراضيها، وفي عام ١٨٠٧ حظرت هذه التجارة في مستعمراتها، وفي عام ١٨٣٤ حررت جميع الرقيق في إمبراطوريتها، ثم تبعتها الدول الأوربية الأخرى.

ولكن صدور هذه القوانين والمراسيم لم توقف تجارة العبيد نظراً لما تدره هذه التجارة من أرباح، ولم تتوقف هذه التجارة حتى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

(٣)- نتائج تجارة الرقيق

أ- النتائج الديموغرافية

خسرت القارة عدداً كبيراً من طاقتها البشرية حيث أجمع الباحثون المهتمون بشؤون القارة على أن ما فقدته القارة السمراء قد يصل إلى أكثر من خمسين مليون إنسان إي ما يعادل ربع سكان القارة.

كما تشير المصادر إلى أن الرقيق كانوا في غالبهم من الشباب ١٥-٢٥، مما أدى إلى حرمان القارة من خيرة شبابها وقواها المنتجة القادرة على الإنجاب والتناسل، مما أدى إلى هبوط نسبة النمو الديموغرافي في القارة.

(ب)- النتائج الاقتصادية

١- بما أن الإنسان أصبح السلعة الوحيدة تقريباً التي يبحث عنها الأوروبيون في القارة، فإنه لم يعد لدى الأفارقة من باعث لتطوير إنتاجهم الزراعي وصناعتهم،

٢- أدت تجارة الرقيق إلى القضاء على عدد كبير من الصناعات المحلية التقليدية، كصناعة الأدوات والسلع المختلفة والأقمشة،

٣- انتشار حالة الفوضى الناجمة عن الحروب المستمرة ودوام العنف وانعدام الأمن والاستقرار، أسهمت في اختفاء الرغبة لدى الأفارقة في زيادة الإنتاج ومراكمة الثروة ورأس المال.

٤- إن توقف النمو الديموغرافي للقارة حال دون نمو اقتصاد سوق متين فيها.

٥- إن ما حققته أوروبا من تطور صناعي وزيادة في رأس المال وتطور تقني، نتيجة تجارة الرقيق ونهب الموارد الإفريقية الطبيعية، أسهم في الوقت نفسه في إفقار القارة وتخلفها الاقتصادي.

(ج)- النتائج النفسية

١- أدت تجارة الرقيق إلى خلق أزمة معنوية وأيديولوجية لدى الأفارقة، إذ أن قناصة الرقيق من الأفارقة لم يعد لديهم الفكرة نفسها عن الإنسان.

٢- من جهة أخرى، أسهمت هذه التجارة في نشوء حالة من الخوف والذعر المستمر في نفوس الأفارقة.

(د)- النتائج السياسية

١- الانحطاط السياسي

أدت تجارة الرقيق إلى فقدان الطرق التجارية عابرة الصحراء الكبرى لأهميتها، والقضاء على الازدهار الاقتصادي الذي عرفته خلال العصور الوسطى، مما أدى إلى دخول هذا الإقليم بانحطاط سياسي لن يتخلص منه إلا في القرن التاسع عشر.

٢-نشوء عدد من الممالك الأفريقية تقوم أساساً على تجارة الرقيق

فقد نشأت عدة ممالك من أهمها (الاشانتي، الداهومي، اويو)، حيث كانت هذه القبائل تقع في وسط مناطق صيد الرقيق مما وضع زعماءها أمام خيارين:

I- إما أن يشهدوا قيام القبائل الساحلية باقتناص أفراد قبائلهم وبيعهم رقيقاً إلى النخاسين الأوربيين.

II- أو أن يتحولوا هم أنفسهم إلى تجار رقيق فيحمون قبائلهم ويقنصون الرقيق من القبائل المجاورة.

فاختاروا الحل الثاني، مما أدى إلى ازدهار ممالكهم.

قضاء تجارة الرقيق على بعض الممالك الإفريقية الساحلية مثل مملكتي الكونغو وبينين.

(هـ)- المقاومة الإفريقية

واجهت المحاولات الاستعمارية في القارة مقاومة عنيفة نظمتها ممالك وشعوب القارة، فبعد أن استولى البرتغاليون بقوة السلاح على بعض النقاط الساحلية كان عليهم أن يتصدوا لثورات العرب والأفارقة، ومن ابرز هذه الثورات، ثورة مير علي أو الأمير علي عام ١٥٨٠ في مقديشو، والذي تمكن بمساعدة العثمانيين من إخضاع معظم المناطق التي كان البرتغاليين قد استولوا عليها، ولكن البرتغاليون استطاعوا إخماد الثورة بمساندة قواتها البحرية الموجودة في الهند، وبعد هذه الثورة قام البرتغاليون بتدعيم حصونهم وبناء حصون قوية للتصدي لمثل هذه الثورات. ولكن الثورات استمرت بدعم من عُمان والدولة العثمانية.

ومن جهة أخرى أدت منافسة الدول الأوربية للبرتغاليين منذ القرن السابع عشر إلى إضعاف مركز البرتغاليين فيها، وتشجيع الثوار على مهاجمة المراكز البرتغالية.

كما حفل النصف الثاني من القرن السابع عشر بأحداث الصراع بين البرتغاليين والإمارات الساحلية في شرق إفريقية بتأييد من العثمانيين، حيث استطاع الأفارقة بدعم من اليعاربة أن يحاصروا قلعة يسوع ويحرروها عام ١٦٩٨، فقلصوا سلطة البرتغال على بعض المناطق الحصينة في موزامبيق، واضطر البرتغاليون للاعتراف بسيادة الأفارقة والعرب على المنطقة الواقعة إلى شمال رأس دلغادو.